قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

آراء الفيلسوف الفرنسي فولتير في السيرة النبوية والإسلام

The views of the French philosopher Voltaire on the biography of the Prophet and Islam

محمد زرقوق [1] *، مراد تجنانت [2]
[1] جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر.
[2] جامعة لونيسي علي، البليدة، الجزائر.

Key words:
Voltaire
biography of the Prophet
Age of Enlightenment
Islam.

Abstract

This paper aims to present and criticize the most important opinions presented by the French philosopher Voltaire regarding the biography of the Prophet and Islam. It is noticeable that these opinions varied between criticizing the personality of the Messenger, and praising him, and acknowledging his role and status. The aim of this research is to identify this writer's ideas about the Prophet's biography, and to criticize it. We have relied on the historical, descriptive, and critical approach. Among the findings of this study is that this philosopher was ignorant of many details related to the life of the Prophet Muhammad, and that he did not rely on Arab sources in his writings about biography or about Islam. He also notes that he changed many of his previous opinions at the end of his life, and presented confessions and ideas that were completely different from what he had previously written on this subject.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال :05-05-2024
القبول : 23-05-2024

الكلمات المفتاحية:
فولتير
السيرة النبوية
عصر التنوير
الإسلام.

ملخص

تروم هذه الورقة إلى عرض، ونقد أهم الآراء التي طرحها الفيلسوف والمفكر الفرنسي فولتير حول السيرة النبوية، والإسلام. والملاحظ أن هذه الآراء تنوعت بين القدح في شخصية الرسول ﷺ ، ومدحه، والاعتراف بدوره، ومكانته. والهدف من هذا البحث هو التعرف على أفكار هذا الكاتب حول السيرة النبوية ومدى صحتها، ونقدها، وقد اعتمدنا فيها على المنهج التاريخي، وعلى المنهج الوصفي والنقدي الذي يعتمد على استقراء وعرض المعلومات التي تزخر بها المصادر التاريخية ونقدها. ومن النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، هي أن هذا الفيلسوف كان يجهل تفاصيل كثيرة تتعلق بحياة النبي محمد ﷺ ، وأنه لم يعتمد في كتاباته عن السيرة أو عن الإسلام على المصادر العربية. كما يلاحظ أنه غيّر كثيرا من آرائه السابقة في أواخر حياته، وقدم اعترافات وأفكار تختلف تماما عما كتبه سابقا في هذا الموضوع.

* Corresponding author at : Khemis Miliana University, ALGERIA.
Email : m.zerkouk@univ-dbkm.dz

1. مقدمة

تميز عصر التنوير الذي ظهر في أوربا خلال القرن الثامن عشر ببروز مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين كان لهم نشاط ذهني وثقافي كبير، وكانوا يدْعون إلى الاعتماد على العقل في البحث عن الحقيقة، ونقد الأفكار السائدة في الأوساط السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدعوة إلى نبذ الأعراف والتقاليد الموروثة عن العصور الوسطى، والتمرد على الكنيسة الكاثوليكية التي كانت عائقا أمام تطور العلم، وقيدت العقل واعتبرته قاصرا على إدراك الحقيقة.

ومن المفكرين الذين برزوا في هذا العصر، الكاتب والفيلسوف الفرنسي فولتير، صاحب مسرحية "محمد"، إضافة إلى مؤلفات أخرى تنوعت بين الأدب والفكر، ضمَّنها آراءه حول شخصية الرسول ﷺ . كما اشتهر بأسلوبه الناقد اللاذع ليس لرجال الدين والكنيسة الكاثوليكية، فحسب بل لكل الأديان ومنها الإسلام، الذي استخدمه كغطاء لنقد المسيحية، أما نقده للنبي محمد ﷺ ، والقرآن الكريم، فقد كان يريد بذلك نقد المسيح عليه السلام، ونقد الإنجيل، وبذلك يتجنب تعرضه للمنع والمتابعة من طرف الكنيسة. ولا بد من الإشارة إلى أنه في أواخر حياته غير كثيرا من أفكاره، وأحكامه عن الإسلام.

والهدف من هذه المقالة هو تسليط الضوء على مواقف وأفكار هذا الفيلسوف حول السيرة النبوية، وتحاول البحث التوصل إلى إجابة عن إشكالية رئيسية تتمثل في: ما مدى التطور الحاصل في مواقف فولتير من السيرة النّبوية عامة؟ ومن شخص النّبي منذ بعثته الى وفاته؟ وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدنا على المنهج التاريخي لعرض آراء فولتير، ومصادر معلوماته، ثم نقدها، وفق خطة تقوم على التعريف بفولتير والمستشرقين الذين تأثر بهم، واعتمد على كتاباتهم، ثم نعرج الى مجمل تطور نظرته للسيرة النّبوية تحليلا ونقدا.

2. التعريف بفولتير

اسمه الحقيقي هو فرانسوا-ماري آرووي François-Marie Arouet (1694-1778)، ولكنه اشتهر باسم فولتير، (**حداد**، 2023، **صفحة** 379) وهو يعد من الأعلام التنويريين البارزين في فرنسا إلى جانب مونتيسكيو (1689-1755)، وجان جاك روسو (1712-1778)، وديدرو (1713-1784)، وقد ذاع صيته في فرنسا والقارة الأوربية بما أصدره من مؤلفات كثيرة في الأدب والمسرح والفكر والفلسفة والتاريخ، مدافعا فيها عن الحريات المدنية وحرية المعتقد والمساواة في الحقوق، ومعاديا للاستبداد وهيمنة الكنيسة، فكان بأفكاره من المفكرين ومن المثقفين الفرنسيين الذين مهدوا لقيام الثورة الفرنسية سنة 1789م. ونظرا لأفكاره الجريئة، واسلوبه في نقد السلطة والكنيسة، فقد قال عنه نقاده وأعداؤه، بأن الشيطان قابع في نفسه. إضافة إلى كونه رجلا متناقضا، فقد كان قبيحا بشعا مختالا، معجبا بنفسه، وأحيانا غادرا وفاسقا، ومع ذلك ينقلب أحيانا فيصبح لطيفا رصينا، منصفا سخيا. (**ديورانت**، 1985، **صفحة** 248) يعتقد كثير من المثقفين الفرنسين أن فولتير هو أول من رسم صورة المثقف الفرنسي الحر في ضميره، الخادم لمبادئ العدالة، والتسامح، والحرية، والفيلسوف الذي ألهمت أفكاره الثوار الفرنسيين بعد ميرابو. **(Droit, 2012)**

أنتج فولتير مؤلفات كثيرة بلغت تسعا وتسعين كتابا، في مختلف المواضيع الفكرية، والسياسية والتاريخية والأدبية، وسنكتفي بذكر كتاباته التي تناول فيها السيرة النّبوية الشريفة، وشخص الرسول ﷺ ، أهمها رواية بعنوان "التعصب أو محمد الرسول" (Le Fanatisme, ou Mahomet le Prophète)، التي ألفها سنة 1739م، وقد تحولت إلى عمل مسرحي، ومثلت على مسارح باريس كثيرا. وكتاب أخلاق وروح الأمم (Essai sur les mœurs et l'esprit des Nations) الذي كتبه سنة 1756م، و هو الكتاب المحوري في هذا المقال، وقد عكف على تحريره مدة خمس عشرة سنة في أماكن عديدة من أروبا (فرنسا، سويسرا، بلجيكا، بروسيا)، وقد حاول فيه أن يقدم عرضا جامعا للتراث الفكري، والثقافي، والاجتماعي الذي أنتجته البشرية. (**ديورانت**، 1985، **صفحة** 274). قصد بالأخلاق مجموع القوانين والمؤسسات والتقاليد، أما روح الأمم فيعني بها الأديان والفنون والتجارة مضيفا اليها الظروف المناخية لما لها من تأثير على حياة الإنسان حسب وجهة نظره.

لخص فولتير في الجزء السادس من هذا الكتاب السيرة النّبوية من ولادة النبي ﷺ إلى وفاته، تحت عنوان الجزيرة العربية ومحمد، وفي الجزء السابع تناول موضوع القرآن محللا وناقدا لبعض آياته. **(Voltaire, 1835, pp. 74-97)** أما كتابه الثالث "القاموس الفلسفي"(Dictionnaire philosophique) الذي نشره سنة 1764م، فقد رتّب فيه مصطلحات مختارة في الفلسفة والسياسة والدين والأخلاق وفق ترتيب المعجم، (**ديورانت**، 1985، **صفحة** 290) وقد دافع في شروحاته لهذه المصطلحات عن العقل والمعرفة ودولة القانون، منتقدا رجال الدين المسيحيين عموما ومناهضا لكل الديانات و القيم المنبثقة عنها. (برتيمة، 2018، صفحة 508) وفي سنة 1777م أصدر كتابه "حوارات فلسفية" (Dialogues philosophiques)، ألفه في شكل مجموعة من الجلسات الحوارية الفلسفية من اثني عشر فصلا، لم يخرج فيه عن سياق فلسفة الأنوار التي آمن بها، المعادية للكنيسة والداعية الى أفكار التنويريين في القرن الثامن عشر.

توفي فولتير سنة 1778م مغضوبا عليه من طرف الكنيسة الكاثوليكية التي لم تسمح بدفنه في مقابر النصارى بباريس حسب الطقوس المسيحية، غير أن رفاته نقلت سنة 1791م، أي بعد اندلاع الثورة الفرنسية، إلى البانثيون (Panthéon)، وهو ثاني شخصية فرنسية يدفن في هذه المقبرة المخصصة للشخصيات البارزة التي طبعت تاريخ فرنسا، بعد غبريال

ريكويتي (1749-1791) (Gabriel Riqueti) خطيب الثورة المعروف بميرابو (Mirabeau). (Goldzink, 2012, pp. 971-972) جمعت آثاره في سبعين مجلدا ونشرت بعد وفاته، وما زالت بعض رسائل له غير منشورة تظهر من حين لآخر. (**الموسوعة العربية الميسرة**، 2010، **صفحة** 2482)

3. مصادر فولتير التاريخية عن السيرة النبوية

لا يبدو أن فولتير قد عاد الى المصادر العربية في كتاباته حول العهد النّبوي، لجهله اللغة العربية، رغم تلميحات ظنية قد توحي للقارئ بانه رجع إليها في تحليلاته، كقوله في سياق وصفه: هكذا وصفه معاصروه، يقصد النّبي وقوله: إن أصحاب المصادر الاسلامية دوّنوا حياة نبيّهم بعناية دقيقة، (Voltaire, 1835, pp. 76-81) أما الشيء المؤكد فهو استعانته بما كتبه المستشرقون الذين سبقوه. منهم المؤرخ بيير بايل(م1647-1706) (Pierre Bayle) الذي تناول حياة النّبي في قاموسه التاريخي سنة 1697م، (Goldzink, 2012, pp. 65-64) والمستشرق هنري دي بولنفيليي (Henry de boulainvilliers) (1658-1722م) صاحب كتاب حياة النّبي وحياة المسلمين عام 1630م. هذ الكتاب كان له أبلغ الأثر على المستشرقين الذين ألفوا عن عهد النّبوة في القرن الثامن عشر منهم فولتير في مختلف كتاباته، (Goldzink, 2012, p. 135) وقد أفرد له في الفصل الأول من كتابه حوارات فلسفية جلسة نقاش فلسفي تحت عنوان عشاء القومس دي بولنفيليي. (Voltaire, 1929, pp. 9-57)

استفاد دي بولنفيليي بدوره من أعمال المستشرقين الذين سبقوه في هذا المجال، في مقدمتهم القس الإيطالي والمستشرق المترجم لويس مراتشي Louis Marracci (1612-1700م)، وقد اشتهر هذ الأخير بترجمته للقرآن إلى اللغة اللاتينية مضيفا لها تفسيرا ناقدا، ومحاولا تفنيد محتواه، معتمدا على التفاسير الإسلامية التي اطلع عليها باللغة العربية، فصار بأعماله مرجعا أساسيا ومحوريا للمستشرقين الأوربيين. (Goldzink, 2012, p. 135)

ومن الكتابات الرائدة التي يكون قد اطع عليها فولتير ما خلفه المستشرقون هنري غالان (Antoine galland) (1646-1715) صاحب ترجمة قصص ألف ليلة وليلة، وهو من المترجمين الأولين للقرآن الى اللغة الفرنسية، والقس البريطاني ادوارد بكوك((1604-1691) (Edward pocock) أول أستاذ للغة العربية في جامعة أكسفورد، والمستشرق الهولندي أدريان ريلاند (1676 1718) (Adriaan reeland)صاحب كتاب دين محمد. (Larzul, 2009)

لا شك أن هذه المؤلفات وغيرها من الكتابات الإستشراقية قد أفادت فولتير في التعرف على بعض أحداث السيرة النّبوية، وفق النظرة الإستشراقية لأصحابها، لكن يبدو أن هذه المراجع لم تكن كافية حتى تجنبه الوقوع في أخطاء تاريخية وتحليلات غير موضوعية في قراءته للسيرة النّبوية.

4. عرض فولتير للسيرة النبوية في كتاب أخلاق الأمم

لم يتعرض فولتير لكل تفاصيل السيرة النّبوية في مكة والمدينة، واكتفى بشذرات منها لوصف وتحليل بعض المواقف والاحداث فيها.

4. 1. العهد المكي

سجل فولتير في مختصره بعض معتقدات العرب في الجاهلية كعبادة النجوم، والاصنام، وبعض تقاليد قريش كنذر جد النّبي عبد المطلب بتقديم أحد أبنائه قربانا للآلهة، وحضور النّبي حربا على حدود الشام. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 75) ويذكر حالة الفقر التي كان عليها النّبي واشتغاله في تجارة خديجة التي تزوجها في سن الخامسة والعشرين بمهر قدره عشرين أوقية. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 76) ثم تطرق إلى بعثته في سن الأربعين وبداية دعوته لقومه، ونوه فولتير بإصرار النّبي وثباته على مواصلة دعوته رغم مناهضة قريش واضطهاد أصحابه، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 77) حتى أنه أذن لاثني عشر نفرا وأربع نسوة بالهجرة الأولى الى الحبشة، ثم في الهجرة الثانية ارتفع عدد المهاجرين الى نحو مائة من الصحابة والصحابيات مفضلا هو البقاء في مكة. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 77-78)

4. 2. العهد المدني

يبدأ مجد النّبي ومجد إمبراطورتيه حسب فولتير مع هجرته الى المدينة، وبداية أولى الانتصارات على قريش في مقدمتها غزوة بدر، وبعد تسع سنين تمكن من فتح مكة ثم بسط سلطته على كل الجزيرة العربية، ثم في آخر فترات السيرة توجه اهتمامه الى بلاد الشام، (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 78-79) يقصد فولتير عقده العهود مع أكيدر بن عبد الملك الذي كان يحكم دُومَة الجنْدَل، القريبة من بلاد الشام، (**الحموي**، 2008، **صفحة** 325، ج4) وتبوك، وتيماء، ومع يحنة أو يوحنة بن رؤبة الذي كان في أيلة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، (**الحموي**، 2008، **صفحة** 232، ج 1) واشترط عليهما أن يقرا من حلّ عندهما من المسلمين ودفع الجزية. (ابن هشام، 1955، صفحة 392، ج1) وعند وفاة الرسول | يأخذ فولتير بما ينقله الشيعة عن أحقية علي بن أبي طالب على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، في تولي أمر الخلافة (حكم إمبراطورتيه). (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 83-84)

4. 3. الأخطاء التاريخية التي وقع فيها فولتير

لم تكن هذه المعلومات المختصرة التي قدمها فولتير خالية من الأخطاء التاريخية، التي تؤشر الى قلة اطلاعه على أحداث السيرة النّبوية من مصادرها الأصلية، واعتماده على ما توفر عنده من مراجع إستشراقية التي عادة ما تقدم السيرة النّبوية تقديما مشوها.

ومن الأخطاء التي وردت في كتابه أخلاق وروح الأمم، قوله أن النبي حضر حربا على حدود الشام، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 75) غير أن هذه الحرب التي تذكرها المصادر الاسلامية باسم حرب الفجار جرت وقائعها في الجزيرة العربية بين قريش، وقبائل كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وخصومهم قبائل قيس عيلان بن مضر هوازن وغطفان وبني سليم. (**ابن هشام**، 1955، **الصفحات** 133-184 ج1)

يسجل فولتير حالة الفقر التي كان عليها النّبي، وقيام عمه بالوساطة بينه وبين خديجة لتولي أمور تجارتها الى بلاد الشام، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 76) وقد ذكرت كتب السيرة أن خروجه الأول الى الشام كان مع عمه قبل عمله في تجارة خديجة رضي الله عنها، وأنها هي التي عرضت عليه أن يخرج بمالها بعدما بلغها عنه من صدق حديثه، وأمانته، وكرم أخلاقه، (**ابن هشام**، 1955، **صفحة** 187، ج1) وكفاءته العالية في التفاوض. (**ابن هشام**، 1955، **صفحة** 180، ج1) أما مهرها لما خطبها له عمه فلم يكن عشرين أوقية بل اثنى عشر أوقية أو بكرة، وهو المهر الذي كان يعطيه لأزواجه. (**مسلم**، **صفحة** 1042، ج2)

في غزوة بدر الكبرى لم يكن عدد رجاله بمائة وثلاثة عشر مقاتل أمام ألف من أهل مكة، كما ورد في كتابه، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 78) بل نحو ثلاث مائة رجل وأربعة عشر. (**ابن هشام**، 1955، **صفحة** 706، ج1)

أنكر فولتير أن يكون النّبي أميا دون الرجوع إلى المصادر الإسلامية التي ناقشت هذا الموضوع بكل تفاصيله، بل اعتمد على أدلة واهية لإثبات صحة رأيه، فاحتج بما يُنسب للنّبي من معارف في الطب، واصلاحه للتقويم العربي. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 80) والمعلوم عند المسلمين وفق ما ورد في المصادر الإسلامية أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو أول من أرَّخ بالهجرة النّبوية. (**السيوطي**، 2004، **صفحة** 23)

5. آراء فولتير في السيرة النبوية

اختلفت آراء الفيلسوف الفرنسي حول شخصية الرسول Ì ، بين التحامل والهجوم، والمدح والإشادة، وهذا عبر مراحل حياته المختلفة.

5. 1. الصورة الأولى التضليل والقدح في السيرة النبوية

يظهر فولتير في الصورة الأولى متحاملا على النّبي في تأليف مسرحي من خمسة مشاهد سنة 1739م، تجري أحداثه الخيالية عند فتح مكة، وتحمل المسرحية عنوان "التعصب أو محمد الرسول" (Le Fanatisme, ou Mahomet le Prophète)، وكان هذا التأليف كله تضليل وتشويه. وقد ادعى في رسالة الى ملك بروسيا فردريك الثاني (1712-1786) أنه أخرج هذا العمل الذي عُرض ثلاث مرات بين سنتي 1741 و 1742، حبّا لقيم الإنسانية وإيمانا بالتسامح و كرها للتطرف. (Voltaire, Le fanatisme, ou Mahomet le Prophète, 1741, pp. 4-5) ولما أدركت الكنيسة أن المقصود من المسرحية أولا رجال الدين المسيحين والكنيسة الكاثوليكية أصدرت قرارا يمنع عرضها على خشبات المسارح. (Louli, 2016)

أظهر فولتير إصرارا في الدفاع عن مسرحيته المسيئة للدعوة الإسلامية وشخص النّبي في رسالة وجهها الى البابا بنديكتوس الرابع عشر سنة 1745م، والذي كان يبدي آراء منفتحة على الأفكار الجديدة طالبا دعمه لمسرحيته. ويمكن القول أن هذه المسرحية سقطة أخلاقية إذ استعمل شخص النّبي بغرض مهاجمة الكنيسة، أما رسالته للبابا بنديكتوس فهي استمرار في تناقض فولتير مع القيم التي ادعاها، ونادت بها حركة التنويريين في أروبا عامة وفرنسا خاصة. (**فوزي**، 1998، **صفحة** 53)

رغم ما أظهره فولتير من آراء مغايرة في كتابه أخلاق الأمم وروحها) 1756م) في الفصلين السادس والسابع، فإنه لم يخرج عن النظرة التقليدية للغرب المسيحي الموروثة عن فكر العصر الوسيط، والتي تتميز بالتعصب الأعمى ضد الإسلام، مضيفا لها منهج الفكر التنويري الذي ينبذ الأديان عامة، وينكر الرسالات السماوية، فهو لا يعترف بنبوة الرسول، ويصف الإسلام بالدين المحمدي والمسلمين بالمحمديين. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 77-75)

يرى فولتير أن ما ورد في الدّعوة الإسلامية من ترغيب بالجنة، وترهيب من النار في الحياة الآخرة، والايمان بالملائكة والقضاء والقدر، فهذه الأصول الايمانية في نظره اعتقاد قديم عند اليهود والنصارى وعند كثير من الأمم. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 99-100) ويتخذ نفس التوجه في الجانب التشريعي، فينقل أن النصارى واليهود في روما في عهد الامبراطور نيرون (54-68م) كانوا يطبقون شريعة موسى في الحلال والحرام من المأكولات، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 106) لكن السؤال الذي كان عليه أن يطرحه، هل بقي أغلب أهل الكتاب ملتزمين بهذا التشريع؟ ورغم إثباته أن الكثير مما حُرِّم في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام هو محرم في الشريعة الإسلامية، إلا أنه ينتقد مقاصد الشريعة الاسلامية كتحريم الخمر، والخنزير، والدماء، ولحوم الميتة، فالتحريم في اعتقاده تجاهل احتمال انتشار الاسلام وسط شعوب من العجم تستوطن الأراضي الباردة في ظروف طبيعية مغايرة لما هي عليه في الجزيرة العربية، فهي حسب رأيه لا تتحمل ترك هذه الممنوعات. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 102)

كان فولتير مهتما بالعلوم خاصة بالفيزياء متأثرا أبلغ التأثير بزوجته العالمة في الرياضيات والفيزياء إميلي دي شاتلي (Émilie du châtelet)، التي كانت تمنح له فرصة القيام ببعض التجارب العلمية في مخبرها، ورغم ذلك نجده يجازف

دون تحليل علمي بوصف القرآن بعدم التناسق مع أدنى القوانين الفيزيائية. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 106)

2.5. خطوات الاعتراف والإشادة

يظهر فولتير في الصورة الثانية بتوجه أكثر إيجابية تجاه السيرة النّبوية، فنلاحظ أنه انتقل الى المدح والتنويه، بالإنجازات التي تحققت في عهد النّبوة، مبرزا تفوقها على النحلتين اليهودية والنصرانية في عدة مجالات. وأبدى إعجابه بأخلاق النّبي، ونوه ببلاغة خطابه، وقوة شخصيته، وكمال هيئته، وشجاعته، وصرامة انضباطه، وثباته، وإصراره على مواصلة الدّعوة رغم وقوف قومه ضده، ومناهضتهم لدعوته. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 77) ومدح رزانة سلوكه متفوقا على من سبقه الموصوفين بالعبقرية والنبوغ، ويضف فولتير أن الرسول لما بلغ سن الأربعين برزت مواهبه وظهر تفوقه على جيله من أبناء قريش. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 76-77)

يفند فولتير ادعاء خصوم المسلمين بأن القرآن أملاه على الرسول راهب نسطوري يدعى سرجيوس أو بحيرة، وأن الآيات والسور كانت تُدون في أسفاره وحملاته، ويرد بمنطق العقل ودعابته المعهودة أنه لا يُعقل أن يرافق هذا الراهب المزعوم النّبي في كل تحركاته فيملي له آيات القرآن.

يرى فولتير أن من جميل ما في القرآن، إحاطته بمواضع متعددة، ففيه عرض لبعض الاحداث التاريخية والرؤى والتنبؤات والقوانين، فلم يكن القرآن الكريم كتاب تاريخ كما كانت عليه التوراة والأناجيل، ولا كتاب قانون مثل الاصحاح الثالث والخامس من التورة، بل هو كتاب جامع وشامل لهذه العناصر كلها. ويشيد فولتير برقة التعبير القرآني وروعته وخطابه الفاصل، (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 97-98) مستشهدا ومنبهرا بسورة الإخلاص في قوة بيانها وصرامتها وقطعية دلالتها في القضايا الكبرى، مثل رفض الشرك رفضا مطلقا، وتوحيد الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (الإخلاص، الآيات 1-4)

يُوردُ فولتير بعض ما في القرآن من توجهات أخلاقية مستدلا بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. (الأعراف، الآية 199) ويرى أن من العوامل التي ساهمت في انتشار الإسلام منذ عهد النّبوة، فَتْح المجال لغير العرب لاعتناق الإسلام والاندماج في المجتمع الإسلامي، ويعتقد أن العرب المسلمين منذ عهد النّبوة كانوا أكثر حماسة وشجاعة وذكاء وتسامحا مع غيرهم من الأمم، متفوقين في الكرم والرّحمة على غيرهم من الأمم، وبهذا السلوك الراقي تمكن النّبي من إحداث تغيير جذري كان له أبلغ الأثر على شعوب كثيرة من المعمورة. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 82-95)

وتتلخص سياسة الدّعوة منذ عهد النبوة بالاعتماد على أسلوب الحجة والاقناع، وفي حالة الحرب وتحقيق الانتصار يُحسِن المسلمون في معاملة المنهزمين، ويعترف بأن الدّعوة الإسلامية هي الوحيدة التي جمعت بين استعمال القوة وأسلوب الإقناع، بينما دعوات، ونحل أخرى فرضت معتقداتها بقوة الحديد والنار، مستشهدا بالنصرانية التي صارت الديانة الأقل تسامحا والأكثر وحشية في نظره. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 80-104) ومن ملاحظاته التي تظهر سماحة الدّعوة الإسلامية، أن النّبي الجديد كان يُخَيِّر النَّاس بين اعتناق الإسلام، أو البقاء على دينهم ودفع جزية قدَّرها القرآن بثلاثة عشر درهم في السنة (ما يعادل دينارا واحدا تقريبا)، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 79) مقتربا من مذهب الأحناف، والحنابلة في مقدار الجزية. (**القرطبي**، 1964، **صفحة** 112)

يتعجب هذا الفيلسوف من جرأة النّبي في مراسلة حكام العالم القديم، واستجابة ملك الحبشة، وملك المناذرة لدعوته، (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 79) ويظهر أنه لم يُدرك القوة التي صار عليها النّبي بعد غزوة مؤتة، وفتح مكة، وغزوة تبوك، فخضعت له بعض مدن شمال الحجاز، وحدود الشام لشروطه، وأسلمت قبائل عربية قوية مثل ثقيف وهوازن وبنو حنيفة، وأقبلت الوفود إلى المدينة من كل جهات شبه الجزيرة، فاتسع حكم النّبي في أواخر حياته، وصار له أمراء حرب، وعمال يجمعون الزكاة. (**ابن هشام**، 1955، **الصفحات** 606-607، ج2)

ورغم انتقاده لمقاصد الشريعة الإسلامية، فقد ردّ على الذين ينتقدون بعض ما جاء فيها، ووصفوا بعض أحكامها بالشهوانية، فعن تعدد الزوجات التي حددها الاسلام بأربع، يرد أنه في زمن النبوة كانت العادات الشرقية لا تجعل حدا للتعدد، ويعطي مثالا بما كان عليه الآباء المؤسسين للكنيسة منهم القديس يوستينيوس (100 - 165) (justinius م)(الذي يقول: "ستكون أورشليم أكبر و أجمل حتى تستقبل القديسين الذين سيستمتعون بكل الملذات مدة ألف عام". (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 95-96)

ومن صور إعجابه بالتشريع الإسلامي، فهو يرى أن من أهم حسنات الإسلام تميزه عن باقي النحل بفرض الزكاة على المالكين للنصاب بنسبة تقدر بـ 2,5% من مداخيلهم النقدية أو العينية، وتحريم ألعاب الميسر، والقمار التي لا يجد لها أثرا في لتشريعات القديمة. (Voltaire F.-M. A., 1835, pp. 101-103) وبعد اثني عشر قرنا بقيت التشريعات الاسلامية موجودة كاملة غير ناقصة، يحترمها مسلمو بلاد فارس، وتركيا، وافريقيا، والهند ويلتزمون العمل بأحكامها بأمانة. (Voltaire, Les dialogues d'Evhémère, 1777, p. 159)

أخيرا في كتابه الحوار الفلسفي الذي كتبه عام 1777م، في الثالثة والثمانين من عمره، وقبل وفاته بعام، يخرج باستنتاج يحمل معاني الاعجاب والاعتراف بتفوق الدّعوة النّبوية على كل الدعوات فيقول: "من بين كل الدعوات فإن الدّعوة الإسلامية هي الأكثر تفوقا، ونجاحا، وهي الدعوة الوحيدة التي يبدو أنها انشرت في ظل العناية الإلهية بما حققته من

الانتصارات". (Voltaire, Les dialogues d'Evhémère, 1777, p. 159) ويضيف أنه من بين كل أصحاب الشرائع، وكل الغزاة، لا يوجد شخص كتب عنه معاصروه سيرته بنزاهة، وبدقة متناهية مثل محمد، ويستثني رواية المعجزات التي يسميها الخوارق والنوادر، ويرى أن الشرق مفتون بإضافتها في كل حدث وقصة، أما بقية ما وُصف به النّبي أو رُويَ عنه فإنها الحقيقة الكاملة. (Voltaire F.-M. A., 1835, p. 74)

6. مناقشة النتائج

تعتبر تصريحاته الأخيرة جريئة إذا قورنت بما ورد في مسرحيته المضلِّلة حول النّبي، والرسالة التي وجهها للبابا بنديكتوس الرابع عشر سنة 1745م. لقد عاش هذا الفيلسوف ظروف الفترة الانتقالية التي ميزها التجاذب بين معتقدات الكنيسة، وأفكار التنويريين الجديدة التي تمجد العقل، والمنطق، وتعادي الفكر الديني عامة، والمسيحي خاصة. فمن البديهي أن يبقى متأثرا بالمنطلقات الفكرية اليهودية النصرانية، رغم توجهه الى نزعة لائكية لا تؤمن بالأديان السماوية وبالغيبيات، وهو يتفق مع أغلب المستشرقين في إنكار الدّعوة النّبوية وردها الى أصول يهودية نصرانية، وأن دعوته لم تأت بالجديد في مجالات العقيدة والتشريع. (**خليل**، 1985، **صفحة** 136، ج1) وهذا خطأ شائع في أوساطهم جهلا أو تجاهلا بأصول الدّعوة عند كل الأنبياء والرسل. إن الجديد الذي سكت عنه أغلب المستشرقين، ومنهم فولتير هي أن الدّعوة النّبوية هي في أصلها استمرار لدعوة توحيد الألوهية والربوبية، والأسماء والصفات التي دعا لها الأنبياء كافة، وتصحيح للانحراف العقدي لما تبقى من تراث اليهودية والنصرانية في مجال العقيدة، والأحكام كما يبينه النص القرآني في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. (الأحقاف، الآية 9) وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾. (**الشورى**، **الآيات** 13-14)

ينتمي فولتير كما سبق ذكره الى حركة التنويريين، دعاة سيادة العقل ونبذ الفكر الكنسي، وقد تمكن دعاة هذا التيار الفكري من اكتساح كل مجالات المعرفة حتى صارت أفكارهم رمزا وصفة مميزة للقرن الثامن عشر، فوُصِف عصر فولتير بعصر العقل، وقرن أنوار العقل وعصر أنوار الفلسفة وغيرها من عبارات الإطراء، (Jacques, 1968, pp. 167-168) لكن هل أنصف الفكر التنويري، والفيلسوف فولتير الحضارة الإسلامية عامة والسيرة النّبوية خاصة؟

يلاحظ من خلال ما سبق، أن فولتير بقي متمسكا بالنظرة التقليدية للفكر المسيحي، التي تنفي دلائل النبوة، وتشكك في أصول الدين الإسلامي، وفروعه وجزئياته التاريخية، وتبالغ في طرح الافتراضات، وتستند الى الروايات الضعيفة، والشاذة لتقوية حججها، (**خليل**، 1985، **صفحة** 130، ج1) ولكن يجب القول بإنصاف أن تحليلاته شهدت تطورا كبيرا منذ عرضه المسرحي المضلل لسنة 1739م، فصار أكثر موضوعية في نظرته لأحداث السيرة النّبوية، حتى وإن لم يصل فولتير الى مستوى الاعتراف برسالة الإسلام. فإن إشادته وإعجابه بشخص النّبي، وبالدّعوة الإسلامية في عهد النُّبوة يعد تحولا إيجابيا إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة التي عاشها ومنطلقاته الفكرية اللادينية.

سيظهر في القرن التاسع عشر وخاصة في القرن العشرين بعد عصر فولتير مستشرقون أكثر جرأة و موضوعية وإنصافا في دراسة السيرة النّبوية، منهم على سبيل المثال إميل درمنغم (1892-1971) في كتابه محمد، ورجيس بلاشير (1900-1973)، و روجي آرنالديز (1911-2006)، بل نجد من المستشرقين من اعتنق الإسلام على غرار السويسري جوهن لويس بوركهارت (1784 - 1817) والفرنسي فاسان مونتاي (1913-2005م)، والبريطاني مارتينز لينغ (1909- 2005 م)، والرسام الفرنسي إتيان ديني (1861-1929م). (**عزوزي**، 2018، **الصفحات** 30-31) وشيئا فشيئا في القرن العشرين بدأت تختفي عبارات الشريعة المحمدية والدين المحمدي في كتابات المستشرقين معوضين إياها بالمصطلحات الصحيحة كالدين الإسلامي والنّبي محمد.

7. خاتمة

في نهاية هذا المقال، يمكن القول أن فولتير الذي ينتمي إلى عصر التنوير كان يمجد العقل، ومتمردا على تعاليم الكنيسة ويعمل على كسر قيودها، ويعتبرها من بقايا العصور الوسطى، ورمزا للجمود.

هذه النظرة إلى الكنيسة الكاثوليكية أسقطها الفيلسوف على جميع الأديان، ولذلك كان متحاملا على الإسلام، وقدم أفكارا ومعلومات خاطئة عن شخصية الرسول، دون أن يكلف نفسه العودة إلى المصادر الرئيسية لهذا الدين، والتحقق من الآراء والنظريات التي اطلع عليها في كتب المستشرقين.

رغم ذلك فقد شهدت كتاباته تطورا إيجابيا في تحليله، ونظرته للسيرة النّبوية من موقف يظهر عليه التطرف الى ناقد تنويري يجتهد في أن يكون موضوعيا في تحليلاته، وتكرس آراؤه في أواخر حياته نظرة جديدة لرسول الإسلام ميزتها الجرأة في الصدع بالكثير من الحقائق المسكوت عنها في الفكر الاستشراقي الكنسي. وتشكل كتاباته الأخيرة خطوات أولى محتشمة لبداية تغير نظرة المستشرقين تجاه الإسلام، والحضارة الإسلامية في طريق الاعتراف الصريح والشهادة

بصدق رسالة الإسلام.

هذه المقالة هي إطلالة فقط على أفكار فولتير، وما زالت أفكار هذا الفيلسوف الفرنسي وآراؤه حول السيرة النبوية والإسلام، تحتاج إلى بحوث ومقالات أخرى، تميط اللثام بشكل دقيق عن آرائه بشكل مفصل، مع ترجمة أهم أعماله المتعلقة بهذا الموضوع من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية.

تضارب المصالح

يعلن المؤلفون أنه ليس لديهم تضارب في المصالح.

ـ المصادر والمراجع

1ـ المصادر والمراجع العربية

1- جلال الدين، السيوطي. (2004). تاريخ الخلفاء. الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز.

2- أبو الحسن، مسلم. (بلا تاريخ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

3- حسين، عزوزي. (2018). الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية عرض وتحليل. شركة العبيكان للتعليم.

4- شمس الدين، القرطبي. (1964). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية.

5- عبد الملك، ابن هشام. (1955). السيرة النبوية. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

6- عماد الدين، خليل. (1985). المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني مونتغمري وات. تونس: دار الثقافة.

7- فاروق عمر، فوزي. (1998). الاستشراق والتاريخ الإسلامي. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.

8- الموسوعة العربية الميسرة. (2010). الموسوعة العربية الميسرة. بيروت: المكتبة العصرية.

9- نور الإيمان، حداد. (15 09، 2023). موقف مفكري عصر التنوير من الدين الإسلامي. المعيار، صفحة 379.

10- وفاء برتيمة. (03، 2018). أبعاد التسامح الإنساني في فلسفة فولتير. علتم الإنسان والمجتمع، الصفحات 501-516.

11- ول، ديورانت. (1985). قصة الفلسفة (الإصدار 5). (فتح الله محمد المشعشع، المترجمون) بيروت: مكتبة المعارف.

12- ياقوت الحموي. (2008). معجم البلدان. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

2ـ المصادر والمراجع الأجنبية

13- Droit, R.-P. (2012, 08 02). La face cachée de Voltaire. Récupéré sur Le Point: https://www.lepoint.fr/livres/la-face-cachee-de-ltaire-0237_1494397-2012-08-.php#xtmc=la-face-cachee-de-voltaire&xtnp=1&xtcr=1

14- Goldzink, J. (2012). Dictionnaire des Orientalistes de langue française. Paris: Karthala.

15- Jacques, R. (1968). La lumière et les lumières. Cahiers de l'Association internationale des études francaises, pp. 167-177.

16- Larzul, S. (2009, juillet-septembre). Les premières traductions françaises du Coran, (XVIIe-XIXe siècles). Récupéré sur Archives des sciences sociales des religions: https://journals.openedition.org/assr/21429

17- Louli, J. (2016, 10 14). Les textes de Voltaire sur l'Islam. Récupéré sur Implications philosophiques: https://www.implications-philosophiques.org/recension-voltaire-sur-lislam/

18- Voltaire. (1741). Le fanatisme, ou Mahomet le Prophète. Paris: Ernest et Paul Fièvre.

19- Voltaire. (1777). Les dialogues d'Evhémère. Londres: François Grasset.

20- Voltaire. (1929). Dialogues philosophiques. Paris: Scripta Manent.

21- Voltaire, F.-M. A. (1835). Essai sur les moeurs et l'esprit des nations. Paris: Treuttel et Wurtz.

ـ كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA

محمد زرقوق، مراد تجنانت (2024)، آراء الفيلسوف الفرنسي فولتير في السيرة النبوية والإسلام، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 16، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص ص:303-309